وظيفة الخطاب البلاغي في تفسير البيضاوي الالتفات أنموذجاً -

The function of rhetorical discourse in the interpretation of al-Baydawi Pay attention as a model

د. بلهوارى محمد* (1)

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، (الجزائر)
belhaouarimohammed@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/12/28

تاريخ القبول: 2021/11/24

تاريخ الإرسال: 21/08/03

ملخص:

لقد عرفت الدراسات البلاغية الحديثة منجزات متنوعة من تحليل التراث البلاغي وقراءته، ركّز بعضها على بناء نسق تاريخي لهذا التراث المتشابك، يربط السابق باللاحق، ويستكشف علاقات التأثير والتأثر فيما بين السلف والخلف من البلاغيين، في حين انصرفت همة دراسات أخرى نحو البحث المدقق في منجزات واحد أو أكثر من العلماء الأفاضل الذين ساهموا في إنتاج تراثنا البلاغي القديم، وتتبع الدور الذي قام به هؤلاء في بناء صرح البلاغة العربية القديمة، ومن بين هذا العلماء المفسر البيضاوي رحمه الله. **كلمات مفتاحية:** البلاغة. الخطاب. الالتفات. الوظيفة. البيضاوي.

Abstract:

I have known modern rhetorical studies have known various achievements from the analysis and reading of rhetorical heritage, some of which focused on building a historical system for this intertwined heritage, linking the former with the successor, and exploring the influence and influence between the ancestors and the successors of the rhetoric, Whereas, other studies have devoted themselves to a careful research into the achievements of one or more of the most distinguished scholars who contributed to the production of our ancient rhetorical heritage, and traced the role that these played in building the edifice of ancient Arabic rhetoric. Among these scholars is the albaydawi interpreter, may God have mercy on him.

Keywords: Rhetoric. the speech. Pay attention. Occupation.al-Baydawi

مقدمة:

يعدّ الخطاب البلاغي - من حيث هو رسالة - هو فعّالية لغوية، انحرفت عن مواضع العادة والمألوف وتميّزت بخاصية التحدي التي رفعتها عن موضعها الاصطلاحي إلى موضع جديد يخصّها

* بلهوارى محمد

ويليق بها، والظاهر أنّ خير وسيلة للنظر في تجليات الخطاب البلاغي وسُبُل تحرُّر عناصره، هو الانطلاق من مصدره اللغوي من حيث كان مقولة أسقطت في نظام التواصل اللفظي، حيث إنّ فعل التواصل يحدث من منجز (المرسل) يرسل رسالة (ديوان المنجز) إلى متلق. وقد تناول علماء البلاغة في تتبعهم لموضوعات علم البلاغة آليات أخرى، تتصل اتصالاً مباشراً بعلم المعاني، وتمتاز بكونها أدوات فنية تخرج صيغها عن مقتضى الظاهر، وهي تُعبر عن وظائف بلاغية، وأسرار بيانية تقتضيها مقامات المخاطبين وأحوالهم المختلفة. ولقد تباينت آراء البلاغيين في تصنيف بعض هذه الأساليب بين مباحث علم المعاني وعلم البديع، ولكن عند التأمل نجد أن وظيفتها لا تقتصر على تحسين المعنى وتزيينه فقط، بل هي آليات أساسية في نظم الكلام وتأليفه، فوجودها ضروري في أي تعبير بليغ، فبواسطتها يختار اللفظ بعناية، ويُعبر عن المعنى بدقة، ويُوفّر لهما قدرًا من الجمال الفني، يكون مناسباً لمقتضيات الأحوال، ومُنطَلبات الإيضاح والبيان. ولعل من أبرز آليات علم المعاني وظيفة الالتفات. والإشكالية المطروحة لهذه الدراسة ما الالتفات؟ وما وظيفته في تفسير القرآن؟ وما أبرز الوظائف البلاغية التي كشف عنها البيضاوي في تفسيره؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعنا المنهج الوصفي التحليلي وهو السبيل لتحقيق هذه الغاية.

2. مفهوم الالتفات:

1.2 لغة:

مصطلح الالتفات في اللغة مشتق من لفظة (لفت) الثلاثية، وتقدم لنا معجمات اللغة لفيها من الوظائف التي توجهنا إلى أصل اشتقاقه بحيث تكاد تشبه بعضها البعض، حيث يقول الخليل: "لفت اللفت: اللفت: لَيُّ الشَّيْءِ عن جهته كما تَقْبِضُ على عُنُقِ إنسانٍ فتلفته، وَاللَّفْتُ وَالْفَتْلُ واحدٌ. وَلَفْتُ فلاناً عن رأيه، أي: صرفته عنه، ومنه الالتفات" (الفراهيدي، 2002، صفحة 121 ج8).

وقال ابن فارس: "الْفَتْ) اللّام والفاء والتّاء كلمة واحدة تدلّ على اللّيّ وصرف الشّيء عن جهته المستقيمة. منه لفت الشّيء: لويته. ولفّت فلانا عن رأيه: صرفته. والألفت: الرّجل الأعسر" (فارس، 1979، صفحة 158 ج5). وقال ابن منظور: "لفت: لفت وجهه عن القوم: صرفه، والتفت التقاتا، والتلفت أكثر منه. وتلفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه" (منظور، 1414، صفحة 84 ج2)، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا

بِمُؤْمِنِينَ ﴿ [يونس78] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَمِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود 81] ، أي: أمر بترك الالتفات لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من العذاب.

وخلاصة القول في لفظة (لفت) من خلال معجمات اللغة العربية تكاد تتفق على أنها إما الصرف عن الشيء، أو الإقبال على الشيء.

2.2 اصطلاحاً:

أورد علماء البلاغة تعاريف جمة ومتنوعة لمصطلح الالتفات، اختلفت لفظاً وعبارة، واتفقت مضموناً ومعنى. ومن هذه التعاريف ما ذهب إليه (ابن معتر) حيث عرفه بقوله: "هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر" (المعتر، 1990، صفحة 152)، وعرفه العلوي بقوله: "هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول" (العلوي، 1332، صفحة 132ج2)، وقال ابن الأثير: "وحيثه مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا. وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض" (الأثير، 1971، صفحة 135ج2).

وعرفه الزركشي بقوله: "وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرااراً للسامع وتجديداً لنشاطه وصيانة لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سماعه" (الزركشي، 1971، صفحة 314ج3)، وللقرطاجني كلام يحسن إيراده في هذا السياق، حيث يقول: "والصورة الالتفاتية: هي أن يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن يعطف من إحداها إلى الأخرى انعطافاً لطيفاً من غير واسطة، تكون توطئة للسيرورة من أحدهما إلى الآخر على جهة من التحول" (القرطاجني، 1986، صفحة 101).

ويقول السكاكي: "واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل

التفاتا عند علماء المعاني" (السكاكي، 1971، صفحة 199)، وبين صاحب الإيضاح بأنه: "التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها" (القزويني، 1971، صفحة 86 ج2)، أي: التعبير عنه عن طريق التكلم، والخطاب، والغيبة.

ومن خلال هذه التعريفات نستشف أن (الالتفات) هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أو عن صيغة إلى صيغة، كأن يعدل عن التكلم إلى الخطاب، أو عن التكلم إلى الغيبة، أو عن الخطاب إلى الغيبة بالعكس، أو أن يعدل المتكلم من المفرد إلى المثنى، لوظيفة تقتضي ذلك العدول كأن يكون لتأكيد أو إزالة الشك عنه أو غير ذلك.

3. وظائف الالتفات:

الالتفات من آليات البلاغية ذات اللطائف النفيسة، والتي لها شأن في علم البلاغة، وهو فن بديع من فنون القول يشبه تحريك آلات التصوير السينمائي، بنقلها من مشهد إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعدات التي يراد عرض صور منها (الميداني، 2007، صفحة 480 ج1)، وهذا الذي جعل الزركشي يقسمه إلى وظيفتين أساسيتين، وهما: "وظائف عامة، ووظائف خاصة، فمن الوظائف العامة التقنن والانتقال من أسلوب إلى آخر لما في ذلك من تنشيط السامع، واستجلاب بصفائه، واتساع مجاري الكلام، ولفت انتباهه، أما الخاصة فتختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم" (الزركشي، 1971، صفحة 314 ج3)، وبين الزمخشري هذه الوظيفة أيضا فقال: "وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد" (الزمخشري، 1407، صفحة 14 ج1)، أي: أنه أحد طرق العرب في الافتنان في الأسلوب لجذب الانتباه وإيقاظ النفس وتحريكها لقبول ما يلقي إليها، وإيقاظ النفس وتطريتها، وبعث النشاط فيها غاية من الغايات التي يسعى إليها المتكلم.

وذكر ابن الأثير أن الالتفات لا يختص بضابط واحد يجمعه، وإنما يكون على حسب مواقعه في كل جملة، وهدفه حينئذ العناية بالمعنى المقصود (الأثير، 1971، صفحة 173 ج2)، وتكون وظيفته إذن أداء المعنى على أكمل صورة، وأدق تعبير، ومن أبرز تلك الأغراض: قصد تعظيم شأن المخاطب، والتنبية على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه، وقصد المبالغة، وقصد الدلالة على الاختصاص، وقصد الاهتمام، وقصد التوبيخ، والدلالة على علو المكانة (السيوطي، 1974، صفحة 129 ج2).

ولقد كشف الإمام البيضاوي عن الوظيفة التي تضيفها هذه الأداة على الكلام، والقيمة البلاغية الجمالية المستفادة من وروده في الكلام، وهذه بعض النماذج من تفسيره.

3-1 الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

وهو أن يكون أولاً بلفظ الغيبة ثم يحدث عدول وانتقال من ذلك إلى الخطاب، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة. 1.2.3]. قال البيضاوي: "خوِّط بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللتلقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً" (البيضاوي، 1988، صفحة 28 ج1)، ويستشف من كلام البيضاوي أن النص جار وفق أسلوب الغائب في قوله (الحمد لله رب العلمين)، ثم انتقل إلى أسلوب الخطاب في قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، ووظيفة هذا الانتقال تعظيم شأن المخاطب.

وتساءل الزمخشري عن تفسيره لهذه الآية فقال: "فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم" (الزمخشري، 1407، صفحة 11 ج1). والفتات من الغيبة إلى الخطاب وتلويح للنظم من باب إلى باب جارٍ على نهج البلاغة في افتتان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام لما أن التنتل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى كل واحد من الآخرين.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب. 50]، يقول

البيضاوي: "والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكررا، ثم الرجوع إليه في قوله: (خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)، إيدان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله" (البيضاوي، 1988، صفحة 235 ج4)، يفهم من كلام البيضاوي أنه قد بدئ سياق الآية الكريمة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم (أحللنا لك)، ثم عدل عن ذلك إلى الإخبار عنه بطريق الغيبة (إِنْ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ)، ثم عدل عن ذلك مرة أخرى إلى طريق الخطاب (خالصة لك). ووظيفة هذا العدول كله للتشريف.

والذي يظهر من سياق كلامه أن إثارة العدول إلى الغيبة بلفظ (النبي) يتأزر في وظيفته مع وصف المرأة الواهبة نفسها بصفة الإيمان (وامرأة مؤمنة)، فالإيمان هو وصف لكل من وقع عليهن فعل الإحلال في الآية الكريمة، ولكن هذا الوصف قد أوتر ذكره مع الواهبة نفسها لكي يتضافر مع العدول إلى لفظ النبي في رفع الحرج الذي قد يبلغ ذروته في صدره صلى الله عليه وسلم نحو خصوصية الهبة، ومن هنا كانت الوظيفة البلاغية لهذا الالتفات في الآية الكريمة، التشريف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحق هذا التشريف.

3-2 الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

والمقصود بهذه آلية الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، ومثاله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس.22] ، يقول البيضاوي: "عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم" (البيضاوي، 1988، صفحة 109 ج3)، يفهم من كلام البيضاوي أن هناك انتقال من الخطاب (كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ) إلى الغيبة (وَجَرَيْنَ بِهِمْ)، لتحقيق وظائف عدة منها، أنهم لما كانوا في الفلك وهي راسية بهم خوطبوا، فلما جرت بهم وابتعدوا إلى داخل البحر لاعم أن يلتفت من خطابهم إلى الغيبة، وأنهم وقت الركوب استحضروا الخشوع، وذكروا الله لأنهم خافوا الهلاك وتقلب الرياح، فخوطبوا عندئذ ونودوا نداء الحاضرين فلما جرت بهم بما تشتهي أنفسهم بريح (طيبة) وآمنوا الهلاك، لم يبق حضورهم، وتلك عادة الإنسان أنه إذا أمن غاب (الزركشي ا.، 1971، صفحة 318 ج3)، فلما غابوا عند جري الفلك بهم بريح طيبة، التفت عنهم، والغرض من هذا الالتفات للمبالغة.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِيًّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم.39] ، يقول البيضاوي: "والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعل ذلك (فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)، والراجع منه محذوف إن جعلت (مَا) موصولة تقديره: المضعفون به، أو فَمُؤْتُوهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ" (البيضاوي، 1988، صفحة 207 ج4)، يشير البيضاوي أن الانتقال من الخطاب (وَمَا آتَيْتُمْ) إلى الغيبة (فَأُولَئِكَ هُمُ)، ولم يقل: (أنتم المضعفون)، للتأنيبه بهؤلاء مع ما في الإشارة من التعظيم لدلالاته على علو المرتبة وترك ما أتوا، وارتفاع منزلتهم عند الله تعالى.

ولعلّ مما يوضح ذلك قول الزمخشري: "التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: (هم المضعفون). فهو أمدح لهم من أن يقول: (فأنتم المضعفون). والمعنى: المضعفون به، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما" (الزمخشري، 1407، صفحة 481 ج3)، وأوماً إلى هذا القول النسفي: "التفات حسن لأنه يفيد التعميم كأنه قيل من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين والمعنى المضعفون به لأنه لا بدله من ضمير يرجع إلى ما الموصولة" (النسفي، 1998، صفحة 702 ج2)، ونكر هذا الوجه أيضاً الألويسي فقال: "والالتفات عن الخطاب حيث قيل: فأولئك دون فأنتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفاً لحالهم" (الألويسي، 1994، صفحة 45 ج11).

والذي يظهر من خلال سياقاتهم في الكلام، أن في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة، والغرض منه التعظيم أو التعميم، لأن في عدوله عن الخطاب إلى الإخبار إيماء إلى أنه لم يخص به المخاطبون، بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة.

3-3 الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

والمراد بهذه آلية الانتقال من الغيبة إلى التكلم، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِذَا يَافِرُهَا رَبُّونَ﴾ [النحل.51] ، يقول البيضاوي: "نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في التهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير" (البيضاوي، 1988،

صفحة 229 ج3)، يستشف من كلام البيضاوي أن الانتقال من الغيبة إلى التكلم في هذه الآية الكريمة، ووظيفة هذا الانتقال المهابة والقاء الرهبة في القلوب.

ومنه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء.1] ، يقول البيضاوي: "وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات" (البيضاوي، 1988، صفحة 247 ج3)، يشير البيضاوي إلى خروج ضمير الغائب (أسرى بعبده) إلى المتكلم (لنريه)، والظاهر أن يقال: (ليريه)، والوظيفة البلاغية من ذلك تعظيم تلك البركات والآيات المعجزة.

ويوضح ذلك الزمخشري فيقول: "ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم، فقيل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة" (الزمخشري، 1407، صفحة 646 ج2)، وهذا ما جنح إليه أيضا الألويسي: "وصرف الكلام من الغيبة التي في قوله سبحانه (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) إلى صيغة المتكلم المعظم في (باركنا)، و(نريه آياتنا)، لتعظيم البركات والآيات لأنها كما تدل على تعظيم مدلول الضمير تدل على عظم ما أضيف إليه وصدر عنه كما قيل إنما يفعل العظيم العظيم" (الألويسي، 1994، صفحة 14 ج8).

نستنتج من هذه الأقوال أن وظيفة الالتفات في الآية الكريمة أفاد قيمة بلاغية، وهي إخراج الغائب إلى صيغة المتكلم لتعظيم الدلائل والمعجزات الإلهية.

3-4 الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

والمقصود بهذه آلية الانتقال من التكلم إلى الغيبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الاعراف.158]، ويقول البيضاوي: "تعريضا لليهود وتنبئها على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له" (البيضاوي، 1988، صفحة 38 ج3)، يفهم من كلام البيضاوي أن في الآية الكريمة التفات من التكلم في

قوله (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)، إلى الغيبة عند دعوتهم إلى الإيمان (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)، والظاهر أن يقال: (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَبِي)، ولكن الآية عدلت عن ذلك إلى ما جاءت عليه.

والغرض من الالتفات هنا أن الإيمان بالرسول ليس إيماناً لذاته، فالرسل لا يتبعون لذواتهم، بل لأنهم رسل من عند الله، ولذا جاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالنبوة والامية، وفي هذا أكبر دليل على صدقه، وهو ما لا نجده، لو أن التعبير جرى على مقتضى الظاهر (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَبِي...).

وما يؤكد ما ذهب إليه البيضاوي في تفسيره لهذه الآية، ما قاله من قبل الزمخشري: "فإن قلت: هلا قيل: فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَبِي، بعد قوله: إني رسول الله إليكم؟ قلت: عدل عن المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيري، إظهاراً للنصفة وتقديراً من العصبية لنفسه" (الزمخشري، 1407، صفحة 166 ج2).

ويرى أبو السعود أنّ وظيفة الالتفات في هذه الآية المبالغة، حيث يقول: "وإيراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة المبالغة في إيجاب الامتثال بأمره" (العمادي، 1971، صفحة 280 ج3). أما العلامة ابن عاشور، فيقول: "التفات من التكلّم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقّق الصفة الموعود بها في التّوراة في شخص محمّد صلى الله عليه وسلّم" (عاشور، 1984، صفحة 139 ج9)، وقد ذكر ابن الأثير الفائدة من هذا اللون في وظيفتين أساسيتين فقال: "فقدّر أولاً في صدر الآية: (إني رسول الله إلى الناس) ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين: الأول منهما إجراء تلك الصفات عليه، والثاني الخروج من التعصب لنفسه" (الأثير، 1971، صفحة 11 ج2).

ومنه قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكره لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحث الثرى﴾ [طه.1.2] ، قال البيضاوي: "والانتقال من التكلّم إلى الغيبة للتفنن في الكلام وتخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتبنيبه على أنه واجب الإيمان به والانتقياد له من حيث أنه كلام من هذا شأنه، ويجوز أن يكون أنزلنا

حكاية كلام جبريل والملائكة النازلين معه" (البيضاوي، 1988، صفحة 22 ج4)، يستشف من كلام البيضاوي أن التقات في التكلم من قوله (ما أنزلنا) إلى الغيبة (ممن خلق)، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (أنزله الله)، وهذا لغرض بلاغي، الوظيفة منه تعظيم الشأن وتفضيحه.

وقد تساءل الزمخشري عن الفائدة من الانتقال، إذ قال: "فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة الافتتان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة. ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة. ومنها أنه قال: (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين" (الزمخشري، 1407، صفحة 49 ج3)، ويرى الرازي أن الوظيفة البلاغية من هذا الانتقال لأمر: "أولا: أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة، وثانيها: أنه قال: (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين. وثالثها: يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه" (الرازي، 1420، صفحة 22 ج2)، ولأبي حيان كلام يحسن إيراده في هذا السياق، حيث يقول: "وكان في قوله (ممن خلق) التقات إذ فيها الخروج من ضمير التكلم وهو في (ما أنزلناه) إلى الغيبة، وفيه عادة التفتن في الكلام وهو مما يحسن إذا لا يبقى على نظام واحد وجريان هذه الصفات على لفظ الغيبة والتفخيم بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظم نفسه، ثم إسناده إلى من اختص بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد فحصل التّعظيم من الوجهين" (الأندلسي، 1420، صفحة 308 ج7)، وذكر أبو السعود أيضا هذه الوظيفة، بقوله: "ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبه إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الأفعال والصفات إثر بيانها بحسب الذات بطريق الإبهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما" (العمادي، 1971، صفحة 3 ج6).

نستنتج من هذه الأقوال السابقة أن البيضاوي يتفق مع جلّ المفسرين، أن في الآية الكريمة التقات، والوظيفة البلاغية منه الانتقال لتضخيم شأن هذا المنزل الكريم.

وبالتالي يبدو لنا أن هذا النوع من الالتفات يكثر وجوده في القراءات القرآنية، وقد أشار البيضاوي إلى هذه القراءات إشارة ولم يعلق في كثير منها، والوظائف التي تعود على المتلقي من هذا النوع هي تأدية المعنى المقصود التعبير عنه.

3-5 من التكلم إلى الخطاب:

والمقصود بهذه الوظيفة التعبير بالانتقال من التكلم إلى الخطاب، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء.64] ، يقول البيضاوي: "وإنما عدل الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبهياً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب" (البيضاوي، 1988، صفحة 81 ج2)، يفهم من كلام البيضاوي أن في الآية الكريمة التفات، حيث كان سياق الكلام يقتضي (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ)، ولكنه عدل عن ذلك كما خوطب بقوله (جاءوك)، لكي يحقق وظيفة بلاغية من هذا الانتقال وهو الترخيم.

وقد وضح الزمخشري هذا الكلام بقوله: "ولم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهياً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان" (الزمخشري، 1407، صفحة 527 ج1)، وذكر أبو حيان هذه الوظيفة فقال: "والتفت في قوله: (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ)، ولم يجيء على ضمير الخطاب في (جاءوك) تفخيماً لشأن الرسول، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهياً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله تعالى بمكان، وعلى أن هذا الوصف الشريف وهو إرسال الله إياه موجب لطاعته" (الأندلسي، 1420، صفحة 692 ج3)، وبين الشوكاني الوظيفة من الالتفات فقال: "(اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) على طريقة الالتفات، لقصد الترخيم لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم" (الشوكاني، 1414، صفحة 557 ج1).

وهذا هو اختيار جمع من المفسرين، وعلى ذلك يكون الالتفات في الآية الكريمة قد خرج عن وظيفته الحقيقية إلى وظيفة بلاغية، الغاية منها الترخيم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحق هذا الشأن.

ومنه قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ [يس.2.1]، يقول البيضاوي: "تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاء النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها والمراد تقيعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره" (البيضاوي، 1988، صفحة 266 ج4)، إذا حللنا كلام البيضاوي وجدناه يبيّن لنا هذه الوظيفة من الالتفات في الآية الكريمة، حيث التفت من التكلم في قوله (وَمَا لِي) إلى الخطاب في قوله (تَرْجِعُونَ)، والظاهر أن يقال: (وإليه أرجع)، فضلا عما تقيده أداة الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه وتنبيه لذهنه وفكره، لما فيه من التنويع وعدم المضي على وتيرة واحدة. وحتى لا ينفروا من قبول النصح.

ويقول صاحب الكشف: "ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، ولأنه أدخل في إمحاء النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم). ألا ترى إلى قوله: ﴿وإليه تَرْجِعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرنى وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق" (الزمخشري، 1407، صفحة 10 ج4).

وأوماً إلى هذا القول الرازي، حيث قال: "وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية: وهي أنه لو قال: (مالكم لا تعبدون الذي فطركم)، لم يكن في البيان مثل قوله: (وما لي)، لأنّه لما قال: (وما لي) وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كلّ أحد أنّه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنّه أعلم بحال نفسه" (الرازي، 1420، صفحة 263 ج26).

والملاحظ في هذه الآية الكريمة، ومن خلال شرح المفسرين لها، والذي توصلنا إليه أنّ السياق في الآية كان يقتضي أن يقول المتكلم: وما لي لا أعبد الذي فطرنى وإليه أرجع، ولكنه انتقل إلى خطاب المخاطبين: ليكون تأثيره فيهم أوقع، حيث يذكرهم بأنهم راجعون إلى الله الذي سيحاسبهم على ما فعلوا خيرا أو شرا، وعليهم أن يعبدوه ولا يقصروا في عبادته، ومن ثم يبدو الالتفات ليس مجرد تغيير في الأسلوب، ولكنه تغيير يهدف إلى وظيفة معنوية أكبر هي التأثير في المخاطب وجذبه إلى ما يريده المتكلم.

وخلاصة القول؛ نجد أن البيضاوي كان له القدرة على توظيف أداة الالتفات، مما يؤكد بعد غوره في قضايا كثيرة من البلاغة، كما نجده يعتمد في كثير من أمثله وتفسيراته على أقوال البلاغيين كأمثال الجرجاني، إلا أنه يفصل أحيانا في بعض الأمور.

وقد رأينا أن البلاغيين حددوا ستة أنواع من الالتفات، أما البيضاوي فقد ذكر خمسة أنواع هي (بلهوارى، 2019):

الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، والانتقال من الخطاب إلى الغيبة، والثالث الانتقال من الغيبة إلى التكلم، والرابع الانتقال من التكلم إلى الغيبة، والخامس الانتقال من التكلم إلى الخطاب، أما النوع الأخير فلم يسمه.

4. خاتمة:

فالالتفات في تفسير البيضاوي من أكبر أدوات علم المعاني بعد الإنشاء الطلبي، كما نلاحظ اتفاق البيضاوي مع البلاغيين في وظيفة أساسية وهي أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ في تجديد نشاط السامع، وأكثر إيقاظا لمشاعره وتنبيهها لأحاسيسه، وعندئذ يقع في نفسه موقعا حسنا، ويحقق وظائفه وفوائده المرجوة.

كما نرى أن الالتفات أيضا جاء على اختلاف أشكاله، ليؤدّي وظيفتين أساسيتين وهما:

- تحقيق المزية الفنية بتنويه الخطاب.

- تأدية الوظائف الإبلاغية التي يفيدها الالتفات في كل حالة بحسب السياق، كالترهيب والتوبيخ والذم والمدح والتقرير وغيرها.

5. قائمة المراجع: طريقة (APA)

ابن عبد الله الزركشي. (1971). البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.

- ابن عبد الله الشوكاني. (1414). *فتح القدير*. دمشق: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.
- ابن علي السكاكي. (1971). *مفتاح العلوم*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن فارس. (1979). *مقاييس اللغة*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن فارس. (بلا تاريخ). *مقاييس اللغة*.
- ابن منظور. (1414). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر بيروت.
- أبو البركات النسفي. (1998). *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*. بيروت: دار الكلم الطيب.
- أبو السعود العمادي. (1971). *تفسير أبي السعود*. لبنان: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- أبو حيان الأندلسي. (1420). *البحر المحيط في التفسير*. دار الفكر - بيروت: لبنان.
- الأندلسي أبو حيان. (1420). *البحر المحيط في التفسير*. دار الفكر - بيروت: لبنان.
- الخطيب القزويني. (1971). *الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدع*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخليل بن أحمد الفراهدي. (2002). *العين*. لبنان: دار الكتب العلمية. بيروت.
- الزركشي. (1971). *البرهان في علوم القرآن*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الطاهر بن عاشور. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: دار التونسية للنشر - تونس.
- العلوي. (1332). *الطراز*. مصر.
- المعتر. (1990). *البدع في البدع*. بيروت.
- جار الله الزمخشري. (1407). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. لبنان: دار الكتاب العربي بيروت.
- جلال الدين السيوطي. (1974). *كتاب الإتقان في علوم القرآن*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حازم القرطاجي. (1986). *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- حبنكة الميداني. (2007). *البلاغة العربية - أسسها وعلومها وفنونها*. دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.
- شهاب الدين الألوسي. (1994). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. دار إحياء التراث العربي بيروت: لبنان.
- ضياء الدين بن الأثير. (1971). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- فخر الدين الرازي. (1420). *مفاتيح الغيب*. لبنان: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- محمد بلهوارى. (2019). *الأدوات البلاغية ووظائفها في تفسير البيضاوي*. الجزائر: جامعة وهران 1.
- ناصر الدين البيضاوي. (1988). *أنوار التنزيل في أسرار التأويل*. لبنان: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.